

مقدمه عن الاستشراق

الاستشراق بتعبير موجز: دراسة يقوم بها الغربيون لتراث الشرق وبخاصة كل ما يتعلق بتاريخه ، ولغاته، وآدابه، وفنونه، وعلومه، وتقاليده وعاداته.

وإذا كان الاستشراق يستقطب هذه الصيغة، فالمستشرق . بهذا الاعتبار . هو الغربي الذي يدرس تراث الشرق، وكل ما يتعلق بتاريخه، ولغاته، وآدابه، وفنونه وعلومه وتقاليده، وعاداته.

ولا بدّ لدراسة هذا التراث من أداة توصله إلى ثماره المنشودة وهذه الأداة التي يجب أن يتحصّن بها المستشرق: هي إتقان لغة الشرق، والتخصّص بأبرزها آثارا في التأريخ والفنون والآداب والعلوم، وهي اللغة العربية لا ريب، لهذا يرى المستشرق الألماني المعاصر « ألبرت ديتريش » أن المستشرق: هو ذلك الباحث الذي يحاول دراسة الشرق وتفهمه، ولن يتأتّى له الوصول إلى نتائج سليمة ما لم يتقن لغات الشرق.

ومصطلح الاستشراق يرجع إلى العصر الوسيط، بل إلى العصور القديمة، أي إلى الوقت الذي كان فيه البحر المتوسط كما قيل يقع في وسط العالم، وكانت الجهات الأصلية تتحدّد بالنسبة إليه، فلما انتقل مركز ثقل الأحداث السياسية بعد ذلك من البحر المتوسط إلى الشمال بقي مصطلح الشرق رغم ذلك دالاً على الدول الواقعة شرق البحر المتوسط .

ويبدو أن مصطلح الشرق لم يقتصر على هذه الرقعة جغرافياً فحسب، بل تجاوزها إلى غرب الجزيرة العربية، وشمال إفريقيا، وذلك بعد الفتوحات الإسلامية، فعُدّت كل من مصر والمغرب وشمال إفريقيا وما تعرّب من سكان هذه الدول من الشرق، فشمّلها هذا الاسم باعتبار دينها الإسلام، ولغتها العربية.

ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى،

ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها الماضي العالم الشرقي، أو دول الشرق.

وكما تخطى مصطلح الشرق حدوده الجغرافية إلى غرب الجزيرة العربية وشمال إفريقيا، فقد تخطى مصطلح الاستشراق الغربيين، وتجاوزهم إلى المستعربين بعامة، ممن لم يعتنقوا الإسلام ديناً، ولم ينطقوا بالعربية لغة، وكان من شأنهم أن بحثوا في تراث الشرق لغة وأدبا، وإن كانوا شرقيين، فشملمهم هذا التعبير، وغمرهم هذا المصطلح، فعادوا مستشرقين.

وفي ضوء ذلك يصح لنا إطلاق الاستشراق الروسي على المعنيين بالشئون المشار إليها من قضايا الشرق الثقافية، وهكذا يقال الاستشراق الياباني أو الاستشراق الصيني، كما يقال الاستشراق الأمريكي أو الانكليزي جنبا إلى جنب.

لقد عاد الإسلام واللغة العربية مادة خصبة لموضوع الاستشراق، وطغت هذه المادة على ما سواها، ولقد قدر للقرآن الكريم أن يحتضن الإسلام واللغة العربية بوقت واحد، حتى أضحى القرآن أغنى المواضيع عند المستشرقين على الإطلاق، فبحثوا جزئياته وكلياته، وانصبت بحوثهم الأكاديمية حوله بشكل يلفت النظر، ويستوقف الباحث.

وكما أطلق لفظ مستشرق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها الماضي العالم الشرقي، أو دول الشرق.

والذي يهنا هنا بالدرجة الأولى هو ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط فقط أو المنطقة العربية بالذات، ذلك أن متابعة جهود المستشرقين خارج المنطقة العربية عمل فوق الطاقة الشخصية وليس ذلك داخلا في خطتنا من هذه الدراسة ولا يمثل ذلك هدفا لنا الآن، كما أن دراسات المستشرقين المتعلقة بشعوب العالم الإسلامي من غير العرب كالهند وباكستان وأندونيسيا ودول شرق وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، وكانت في معظم أحوالها تسير على نفس المنهج والطريقة التي كانوا يسلكونها في منطقة العالم العربي، وكان الهدف من محاولات المستشرقين وجهودهم في الدراسات التي قاموا بها في هذه المناطق كلها هو تطويق المد الإسلامي والعمل على انحساره ووقف نموه المطرد بين أبناء هذه الشعوب المتباعدة، وإن كانت أعمالهم تبدو في معظم أحوالها في ثوب علمي أو أكاديمي، فإن ذلك ينبغي ألا يحجب عن أعيننا نواياهم الخفية التي صرح بها معظمهم في المؤلفات والمؤتمرات العلمية التي كانت تعقد بين الحين والحين لهذا الغرض.

ولا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتعلموا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات ..

ومن أوائل هؤلاء الرهبان، الراهب الفرنسي «جربرت» **Jerbert** الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩ م بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده.

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة «بادوي» العربية، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجمة إلى اللاتينية - وهي لغة العلم في جميع بلاد أوروبا يومئذ -

واستمرَّت الجامعات العربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون.

ولم ينقطع منذ ذلك الوقت وجود أفراد درسوا الإسلام واللغة العربية، وترجموا القرآن وبعض الكتب العربية العلميَّة والأدبية، حتى جاء القرن الثامن عشر - وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي والاستيلاء على ممتلكاته فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق، ويصدرون لذلك المجلَّات في جميع الممالك الغربية، ويغيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية، فيشترونها من أصحابها الجهلة، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تنتقل إلى مكتبات أوروبا، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلدًا، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم.

ويخطئ من يقول إن الاستشراق حركة علمية، لا هدف لها إلا دراسة التراث الشرقي في معتقداته وآدابه؛ لأن الاستشراق في الحقيقة والواقع خادم للاستعمار وأهدافه، وهو يتخذ من دراسة التراث الشرقي وسيلة لمحاربة الإسلام، والتشكيك في مصادره ليصرف المسلمين عن دينهم، فلا تتحقق لهم قوة ولا عزة، بل يظلون تابعين للغرب، مقلِّدين كل ما في بلاده من ألوان الفساد والانحلال.

إن الاستشراق في الحقيقة امتداد للحروب الصليبية ضدَّ الإسلام وحقائقه الناصعة؛ لأن الحروب الصليبية لم تنته، وإنما اتخذت أشكالًا وألوانًا مختلفة، منها الاستشراق؛ فالمستشرق يجيء إلى الإسلام لابسًا العلم الظاهر، ومدّعيًا البحث عن الحقيقة، ولكنه في الباطن قد عقد النية على جمع المطاعن الملققة عن الإسلام؛ فلا يلبث أن يرمي الإسلام بكل ما يحمل صدره من غل، وينفث قلمه من سم؛ فهو يتنكر لمنهج العلم الصحيح الذي من شأنه أن يعرض

الحقائق، وأن يترك للناس الحكم عليها، دون أن يمزجها بمرارة حقدته، ونفثات عداوته، ودون أن يحاول تشويه هذه الحقائق بصورة من الصور.

والمتتبع لحركة الاستشراق يجد أنه مواكب لحركة الاستعمار الغربي لبلاد الشرق والإسلام، مما يدل على أنه امتداد للحروب الصليبية، وشكل من إشكالها، وقد نشطت حركة الاستشراق وبلغت أشدها منذ قرنين من الزمان في صورة حركة تابعة لحركة الاستعمار.

والاستشراق مصدر الفعل (استشرق) أي: اتجه إلى الشرق ولبس زي أهله، وقد اتخذ المستشرقون من دراسة لغات الشرق وسيلة للاتجاه إليه، فدرس كل منهم لغة أو أكثر من لغات الشرق كالعربية والفارسية والعبرية والسريانية وغيرها، ثم درس بهذه اللغة علوم تلك اللغة وفنونها وآدابها ومعتقدات أهلها، وكانت اللغة العربية المطلب المقصود عند الكثير من المستشرقين.

وقد أقبل المستشرقون على دراسة اللغة العربية والتخصص في علومها من نحو وصرف وأدب وبلاغة؛ ليتمكنوا من اللغة، ثم نظروا بعد ذلك في علوم الدين الإسلامي من عقيدة وشريعة؛ لاتخاذ هذه الدراسة وسيلة لتفريق الأباطيل للتشكيك في حقائق الإسلام، وصرف المسلمين عن دينهم الذي يهديهم إلى طريق التقدم والعزة؛ ففتحوا بذلك أهداف الاستعمار في مواصلة احتلال بلاد المسلمين.

وأوضح دليل على صلة الاستشراق بالاستعمار أن سوق الاستشراق رائجة في أوروبا وأمريكا في الدول التي لها مصالح في الدول الشرقية بعامة وفي الدول الإسلامية بخاصة، وأن هذه السوق أكثر رواجاً في الدول الاستعمارية التي تحاول غزو الدول الشرقية بأية صورة من صور الغزو والمعروفة في العصر الحديث؛ سواء أكان الغزو عسكرياً أم اقتصادياً أم سياسياً أم ثقافياً، بل لا تكاد توجد سفارة من سفارات هذه الدول الاستعمارية في دولة من دول الشرق الإسلامية لا يوجد فيها مستشرق أياً كانت رتبته بين رجال السفارة والعاملين بها.

إن ارتباط الاستشراق بالاستعمار وتبعته له جعلت الاستشراق يواصل جهوده في محاربة الإسلام والتشويش على دعوته، ويستعمل كل الأسلحة في حربه؛ لأن هذا الدين الحنيف هو السد المنيع الذي يقف في وجه الاستعمار والعبودية لغير الله.

إن المستشرقين يعلمون من دراستهم للإسلام أن العقيدة التي جاء بها ترتكز على أسس ثابتة من الفطرة الإنسانية العامة والمنطق العقلي المستقيم، والنصوص الدينية الصريحة، بحيث لا يمكن لعقول المفكرين والفلاسفة أن ينقضوا أصلاً واحداً من أصولها إذا التزموا منهج العلم الصحيح، ولذلك يحاول الاستشراق منذ نشأته التشويش على دعوة الإسلام بتلفيق الأباطيل، واتخاذ البحث العلمي ستاراً يلفقون من ورائه هذه الأباطيل.

وقد صار الاستشراق مظلة لكل أعداء الإسلام من المستعمرين والملحدين وغيرهم؛ فأصبح يستظل بها أصحاب العقائد الفاسدة الباطلة من الشيوعيين وأنصار المذاهب الإلحادية الانحلالية في العصر الحديث، فقد جمع هؤلاء بغضهم للإسلام؛ لأن أساسه التوحيد، وهو زبدة الرسالات الإلهية وغايتها، ترتكز كلها عليه وتستند في وجودها إليه، وتبتدئ منه وتنتهي إليه؛ فكل رسول افتتح دعوته لقومه بقوله: {اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ} .

من هنا كان الاستشراق هو المطية التي يركبها أعداء الإسلام لعلمهم يستطيعون بهذه الوسيلة التشويش على دعوته التي تتفق مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.